البترول

مقامه في معارك السلام

الذهب الاسود يسيطر على العالم

لا يخفى ان السفن الحديثة — تجارية كانت او حربية — اصبحت تسير بالبترول لا بالفحم الحجري. وكثير من السفن القديمة بدلت آلاته حتى يستعمل فيها البترول بدلا من الفحم الحجري. فاذا كانت دولة من الدول الكبيرة لا تملك منابع غزيرة منه، لم تستطع مناظرة نداتها في التجارة والحروب. فالطيارات والسيارات والنواصات عدا البوارج الضخمة والسفن التجارية تسيركلها به. فهو من اللوازم في الحروب البرية والبحرية والجوية التجارية. يدلك على ذلك التطرف الذي بدت به كلمنصو في خلال الحرب الكبرى الى ولسن، اذ كاد النفط ينفد من مستودعات فرنسا، فلخصته الصحف يومها بقولها « كل قطرة بترول تعادل قطرة دم ». لذلك رأينا ان نحف قراء المقتطف بفصول متوالية في هذا الموضوع الخطير، نحول صلحة الامم الى البترول نسجت مسائل السياسة الكبرى في العهد الحديث، وحول السعي للسيطرة على منابعه، كتب تاريخ الشركات المالية الكبرى بحروف خطها نار الثورات آناً وقلم المال في المؤتمرات الدولية آناً آخر. فقوة البترول في جميع الدول قوة لا تحسها لانها خفية، ولكننا ندرك مكانتها اذا ازيح اللثام عنها قليلا

ملك النفط القديم

النفط ملكُ العالمِ الحديث، صاحبُ جلالةٍ عتيقة. رفع في بعض العصور القديمة، كمعظم الملوك الاقدمين إلى مصاف الآلهة. ولكن عهد «الملك الالهي» قد انقضى. حتى الميكادو قد تخلى عن الوهيتهِ. فصاحب الجلالة « النفط » اصبح ملِكاً تخضع لهُ رعيتهُ لأنها تؤمن بوجوب خدمتهِ لها، أكثر من ايمانها بجلالهِ. وهذا هو مبدأ الملك الدستوري. ولكنهُ رغم فقدهِ، لصفتهِ الدينية، اصبح حكمهُ الآن اشدَّ استبداداً واكثر ميلاً الى الغزو والفتح، منهُ في العصور الخلوية

وقد عرف، النفط، كما عرف الفحم، من أقدم العصور

جاء ذكرهُ في سفر التكوين. فلما حاول الناس «ان يبنوا مدينةً وبرجاً رأسهُ في السماء»

استعملوا « الحمر » مكان الطين » والحمر هو ما يتبقى من النفط بعد تبخر السوائل الخفيفة التي فيه . والظاهر ان هذا « الحمر » كان يجلب من منابع العراق — المنابع التي كادت تفضي الى حرب بين انكلترا وأميركا من بضع سنوات

ثم إن التوراة تشير إلى تدمير سدوم وعمورة : « فامطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء » . فلعلها كانت انفجار نبع نفطي أصابتهُ النار ، فدمّر المدينتين حرقاً . وعلماء الجيولوجيا يقولون ، إن سهل الأردن ، قبل أن يدمر الربُّ مدينتي سدوم وعمورة ، كانت تكثر فيهِ آبار النفط تغطيها طبقة رقيقة من القشرة الارضية . ومع ارتقاء الوسائل العلمية في أستنباط النفط من منابعهِ ، لا تزال هذه النيران المدمرة كثيرة الشبوب الآن ، ومن المتعذر كبح جماحها بعيد شبوبها في غالب الاحيان

أما كيف شبت النار في نبع النفط المنفجر فكانت سبباً في تدمير سدوم وعمورة ، فيرجح أنَّ صاعقة أنقضت حينئذٍ فالهبت السائل المنفجر ، أو ان بعض الغاز المنبعث مع السائل اللهب لدى اتصالهِ بأوكسجين الهواء ، كما يحدث في بعض منابع النفط الجديدة ، رغم الاحتياطات العلمية الواقية

فلما اشتعلت النار بمنابع النفط التي تحت الارض تفجرت الارض تحت المدينتين فسقطتا في الهاوية المشتعلة .

وكانت مياه الاردن الى ان حلت النازلة ، تجري في أنوف الجداول والاقنية ، فتروي السهل الباسم ، فانقلبت بعد حلولها الى الهوة التي أحدثها الانفجار في الارض ، وملأتها — وهذا هو البحر الميت . فمياه البحر الميت ثقيلة ، يكثر فيها الحمر والكبريت والملح ، وعلماء الجيولوجيا يقولون ان الكبريت والملح يجتمعان في كل نبع نفطي . وعلى سطح هذا الماء الكثيف حيث لا يستطيع حيّ ان يعيش ، ينشر الاردن ماءه العذب ، كالما فوق صفحة صقيلة من الزجاج ، وتنصبُّ عليهِ أشعة الشمس فتبخرهُ . ففي البحر الميت نجد شهادة ناطقة ، تتبين منها كيف دمّر سدوم وعمورة

معجم لغوي

سبق العلامة الدكتور امين سلوف سعة الالفاظ العربية التي تتصل بموضوع البترول فرأينا ان نجري عليها في هذه المقالات

***

Petroleum النفط (البترول)
Bitumen القار والقير
Asphalt الحمر (زفت معدني)
Pitch الزفت
Netural Gas الغاز الطبيعي
Tar القطران

[هذا رأي صاحب الكتاب الذي ننقل عنهُ ولكن الرأيَ الجيولوجيَّ الارجح هو ان تكون البحر الميت والمنخسف الذي حولهُ لهُ علاقة بتكوين خليج العقبة ووادي « الرفت » الذي يمتد من شرق افريقية الى اواسطها كأنها امتداد لمنخسف البحر الميت وخليج العقبة]

***

ويشير هيرودوتوس ، الى ان القار استعمل في بناء مدينة بابل التي قامت بنيانها وابراجها ،

في وسط الحقول النفطية التي تتنازع عليها الامم اليوم

وقد استعمل قار وادي بابل في تحنيط الموتى وكان المصريون يستوردونهُ لهذا الغرض . كما استعمل في بناء المراكب ، حتى لا يتسرب الماء بين الالواح الخشبية الى الداخل . وقد جاء في التوراة ان نوحاً استعملهُ في بناء فلكهِ كما جاء ان النيلَ الذي وضع فيهِ موسى — وهو طفل — على شاطئ النيل كان مطلياً بهِ

ثم ان معتقد زرادشت ، وهو معتقد عبادة النار ، قد نشأ في شبه جزيرة ابشرون ، حيث توجد منابع باكو ، ومنها امتدَّ الى بلاد فارس والهند . وفي الاساطير ان نهراً من النار يجري هناك ، وهذا النهر ليس الاَّ الغاز الطبيعي الذي يشتعل عند اتصاله بالهواء كما يحدث في عصرنا . وهذه المنابع كانت مشهورة في العالم في عصر الاسكندر ، وفي احد اطراف شبه الجزيرة المذكورة ، تمثل النار هيكل لعبادة النار الخالدة يرجع تاريخهُ الى نحو ثلاثة آلاف سنة

***

وقد اشار المؤرخ الروماني ، بلينيوس ، في غير مكان من مؤلفاتهِ ، الى ينابيع عديدة من البترول عرفها الرومان منها ينابيع « اغريغتي » بصقلية . واشار فلوطرخس في استطرادٍ لهُ في « حياة الاسكندر » الى ان هذا القائد المغوار أخذ اذ شاهد في مقاطعة ايكتانيا كهفاً يخرج منهُ جدول من النار لا ينقطع . ثم بين فلوطرخس ان النفط يشبه القار ، ويشتعل مثلهُ اذا اتصل بهِ لهيب . ثم وصف ما فعلهُ البرابرة — اي البابليون وهم في عرف فلوطرخس برابرة لانهم غير يونانيين — ليبينوا للاسكندر فعل هذه المادة المشتعلة . فانهم رشوا طريق القصر بها عن جانبيهِ فلما اسدل الليل ستارهُ اشعلوا النفط من طرف الطريق البعيد فامتدت على جانبيهِ الى القصر باسرع من لمح البصر فبدا الطريق ملتهباً . ثم روى حادثة فتى صُبَّ عليهِ النفط واشعل فكاد يموت حريقاً لولا دلاء الماء

كلُّ هذا يبين ان الامم القديمة من مصر الى فلسطين الى جزيرة العرب الى العراق الى بلاد ايران عرفت النفط من اقدم الازمنة . وكانت اول من استعملهُ

وفي عهد النهضة عرف الناس القار بزيت الصخر وهو باللاتينية « بتري اوليوم » ومنها اسمهُ الحديث « بترول »

***

وفي العصور المتوسطة — وبرجهٍ خاص في عهد النهضة — استعمل النفط دواء ، وكان يستعمل بلسماً في تضميد الجروح . وقد أشار فرنسوى كوه طبيب الملك الذي عهد اليهِ في تحنيط جثة الملك فرنسوى الاول سنة ١٥٤٧ ، الى انهُ استعملهُ لتلوين وجهٍ

من اشهر صنعة على مثال الشوميك وهو استعمال غريب

وفي نحو القرن الرابع عشر ، شرع سكان اوربا يستعملون البترول في الاضاءة ، على مثال ما استعمله اهل الصين من ازمان عريقة في القدم

اما في اميركا فكان الهنود الحمر يعرفون البترول ، وقد وجدوا قوافل المهاجرين اليها متجمعاً في برك حفرها الهنود ليشرب اليها البترول مما يجاورها

هذا هو ملك البترول العريق النسب ، المتغلغل في القدم ، الراجع الى فجر التاريخ

* * *

على ان صناعة استنباط البترول لم تنشأ الاّ في العصور الحديثة . وكانت في الواقع وليدة الصدفة

ذلك ان الكولونل ادوار درايك ، حفر بئراً في بلدة تيتوسفيل بولاية بنسلفانيا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٥٨ ، وغرضه منها تبخير الماء للحصول على رواسب الملح. فاذا بالبئر قد انشقت وانبثق منها سائل زيتي القوام في عمود بلغ عنان السماء بقوة عظيمة ، حتى كاد درايك واعوانهُ يموتون اختناقاً به

وهكذا فتحت منابع البترول الاولى ، وهناك وجد الانسان — كما يحدث غالباً — ما لم يكن يبحث عنهُ . وما كان المكتشف يدرك حينئذٍ ان ما وجدهُ سوف يكون سبباً في اثراء امم ، وذا اثر في احداث خلل في توازن القوى الدولية

* * *

وظلت بئر تيتوسفيل منبثقة بقوتها العظيمة بضعة ايام . يخرج منها كل يوم الوف من اللترات . فبدا لمكتشفها كأنها لن تنفد . ففرغ درايك لذلك ، وأخيراً عمد إلى تحليل ذلك السائل فعرف أنهُ اذا نقّاه قليلاً تمكن من وضعهِ في مصباح والاستضاءة بهِ بضوء أكثر تألقاً من ضوء الزيت النباتي المستعمل حينئذٍ

فذاعت انباء هذا الاكتشاف العظيم بين الوف المغامرين من المهاجرين الى العالم الجديد فشرعت جموعهم تتجه إلى سهول بنسلفانيا ، حيث اكتشفت البئر الاولى . هكذا فشت حمى البحث عن البترول ، وهكذا انبلج فجر صناعة جديدة عظيمة

وكان ذلك مفتتح عصر جديد في التاريخ ، يصح ان ندعوه عصر البترول ، ولما ينته بعد

(الفصل الثاني موضوعهُ — من اقامك ملكاً — أو جلالة النفط لحاً وعظماً)